

وللقارئ أن يتصور وقع هذا الكلام في نفس المهجو ، حين يرى الشاعر قد وصمه بأختيه فجعله يكسب بعرضهما ويثرى من ورائهما . حتى لبتخيل السامع أن ذلك جزءاً من حياة بغداد في التجارة والكسب ، وتملك القينات ، آنذاك ، فيتناول تاجراً من التجار بهذا ، فيجعله خاسراً أبداً الدهر . وزميله أبو نواس مثله في هذا الباب لا يكاد يقصر عنه في تناول الأم والأخت فيقول :

نَيْلَتْ بِأَدْنَى الْمَهْوَرِ أُنْتَهُمُ قَسْرًا وَلَمْ يَدَمْ أَنْفُ خَاطِبِهَا

ويصور هذه الأخت رخيصة قد بيعت بمهر بخس دراهم معدودات وهي على ذلك في ماضٍ مريب لا يشرف خاطبها ولا يثلج صدره . وأبو نواس يجعل للمرأة قصاداً وأخلاء ، في كثرة عجيبة حتى ما يخلص القاصد إلى قلبها من الزحام فيقول :

أَتَيْتُ فُؤَادَهَا أَشْكُو إِلَيْهِ فَلَمْ أَخْلُصْ إِلَيْهِ مِنَ الزَّحَامِ
فِيَا مَنْ لَيْسَ يَكْفِيهَا خَلِيلٌ وَلَا أَلْفَا تَخْلِيلٌ كُلَّ عَامِ
أُظْنِكِ مِنْ بَقِيَّةِ قَوْمِ مُوسَى فَهَمْ لَا يَصْبِرُونَ عَلَى طَعَامِ

وفي هذه الأبيات صور "حضرية عباسية فيها ابتكار وإبداع بعيدة عن جفاف المثلث الأموي ، قد تقع في القرن الرابع الهجري ، بل إن المتنبي أخذ عجز البيت الأول فاستعمله بلفظه ومعناه وأعجبه برصنه ومبناه . والشاعر النواصي بلغ بها ما كان يريد من هجاء فأنهى بهذه المرأة إلى الحضيض من الشرف والدرك من السمعة ، وجعلها خليلة ألف بل ألفين من الرجال كل عام ، فأية امرأة هذه ؟ وكم عرفت من الرجال حياتها ، ومن هي هذه المرأة التي لا تصبر على طعام واحد كقوم موسى الذين وصفهم القرآن الكريم ، واستعار الشاعر رسمهم لهذه المخلوقة في باب العرض والشرف . والجديد في هذا اللون أنه قصد إلى فجور المرأة وعيها كما قصد القدماء ، ولكنه سلك إلى ذلك سبيلاً من الصور المستحثة ليس فيها ذكر الأعضاء وجفاف العبارة وقسوة اللفظ ، وإنما رعى إلى مجمل المعنى فأصاب الهدف ووقع في النجاح .